

الفصل الثاني

عمر الخيام: المولد والوفاة والموطن

(١)

المولد والوفاة

يذكر النظامي العروضي السمرقندي في كتابه چهار مقاله أن الخواجه الإمام عمر الخيامي، والخواجه الإمام مظفر الاسفزانى لما هبطا مدينة بلخ سنة ٥٠٦هـ نزلا في قصر الأمير أبي سعد في حيّ النحاسين - أي أن عمر الخيام كان حياً يُرزق حتى تلك السنة، ثم يقول إن سلطان مرو أرسل إلى عمر سنة ٥٠٨هـ أن يعمل تقيواً بالطقس، أي أنه كان حياً أيضاً حتى هذه السنة. ثم يروي البيهقي في كتابه حكماء الإسلام أنه دخل على الإمام عمر في خدمة لوالده (أي والد البيهقي) سنة ٥٠٧هـ. وكذلك يروي العروضي أنه في زيارة له إلى نيسابور سنة ٥٣٠هـ علم أن عمر الخيام قد حَجَبَ وجهه التراب منذ بضع سنين وأصبح منه العالم السفلى يتيماً، وقيل له إن عمر الخيام قد مات. والبضع في اللغة مابين الثلاث إلى التسع فإذا جاوزت لفظ العشر ذهب البضع فلا تقول مثلاً بضع وعشرون، ولذلك أحسب أن مترجم كتاب براون تاريخ الأدب الإيراني قد أخطأ حينما جعل البضع ثلاث عشرة سنة. وكذلك أظن أن المرحوم الصراف قد جانبه الصواب حينما ذكر ناقلاً عن العروضي أنه قد قيل له إن أستاذه قد توفي منذ أربع سنوات (!!) وكأنه قد فسّر البضع بأنه أربع سنوات.

فإذا اتفقنا على ماهية البضع وطرحنا ذلك من السنة - ٥٣٠هـ - التي نزل فيها العروضي نيسابور، وكان معنى ذلك أن وفاة الخيام جرت مابين ٥٢١ و ٥٢٧ هـ، أو أنها جرت بشهادة العروضي بعد آخر مرة روى أنه كان معه فيها وذلك سنة ٥٠٨هـ. وفي حاشية محمد هيد الوهاب القزويني على چهار مقاله أن أكثر مؤلفي أوروبا كتبوا أن وفاة الخيام كانت سنة ٥١٧هـ. وكتب بروكلمن أنها سنة ٥١٥هـ. ويورد مؤلف مادة الخيام بالموسوعة البريطانية أن وفاة الخيام كانت في الرابع من ديسمبر سنة ١١٢٢م بنيسابور، وأن مولده كان في ١٨ مايو سنة ١٠٤٨م، وسنده في هذه التواريخ المحددة العلامة الهندي جوفيندا تيرثا Govinda Tirtha في كتابه «The Nectar Of Grace: Omar Khayyam's Life and Works». ومع ذلك فإن عالِمين روسيين هما روزنفيلد ويوشكليتشي في كتاب

لهما بعنوان «Omar Khayyam: Traktaty – موسكو ١٩٦١» استخدمنا نفس المعلومات التي استخدمها چوئيندا ودللا بها على أن وفاة الخيام كانت في الرابع من ديسمبر سنة ١١٣١م، وبذلك يكون عمره عند الوفاة ٨٣ سنة. ويعلق إلويل سيتون على ذلك بأن هذا محتمل لأنه يتوافق مع ما ذكر من أن الخيام عاش لوقت متأخر.

ومن الأهمية بمكان تحديد وفاة وميلاد الخيام، وذلك لأنه بناء على هذه التواريخ ستحدد قضايا كثيرة مختلف عليها – منها قضية الأصدقاء الثلاثة: عمر الخيام الشاعر والفلكي، ونظام الملك الوزير المشهور، وحسن الصباح مؤسس فرقة الحشاشين والمنظر للفكر الباطني في عصر الخيام. وينفي البعض هذه القضية على أساس أن عمر الخيام لا يمكن أن يكون قد التقى نظام الملك بسبب فارق السن الكبير بينهما. ومن هؤلاء ماسينيون وآخرون.

والقضية في رأينا كالاتي: السبب في هذا الإشكال ما أورده العروضي من تواريخ عن لقائه بالخيام وعن وفاته. وعند موازنة ما قيل عن وصية نظام الملك حول هذا اللقاء المشهور بين زملاء الدراسة، وقصة العهد الذي قطعوه على أنفسهم، بما ذكره العروضي من تواريخ – أقول بموازنة هذين ببعضهما فإن تواريخ العروضي تتهافت، وتتهافت معها كل الاستنتاجات التي تترتب عليها، والأسلم هو ما يقول به البعض أن الخيام من شعراء القرن الرابع أو الخامس الهجري، وأنه عاصر الدولة السلجوقية، وأن ثقافة العصر التي سادت إبّان حكم هذه الدولة هي التي تشيع في رباعياته، وأن فلسفته التي تعكسها كتاباته النثرية والشعرية هي صدى أو رد فعل للفلسفات التي سادت نيسابور وبلخ وخراسان عموماً خلال حكومات آل سلجوق.

ومع ذلك فلا ينبغي أن يفهم أننا نشكك في كل رواية العروضي، وإنما نبدي التحفظ على ماورد بها من تواريخ، لأن ذكر هذه التواريخ على هذه الصورة التي وردت بها يوحي بأنها متعمدة، وأن وراءها قصداً معيناً لا أستطيع أن أتكهن به، وقد يكون احتمالاً هو التشكيك في وصية نظام الملك وقصة الخيام والصباح، وقد يكون غير ذلك، والله أعلم.

ويقول العروضي أنه لما نزل نيسابور علم بوفاة الخيام، ولم يحدد التاريخ، واكتفى بأن نقل إلينا ماترأى إلى سمعه، ولم يكلف نفسه أن يزور أسرته أو يسأل عنهم، أو عن تبقئ منهم، أو أن يسأل تلاميذه وأصحابه وهم كثر، وهذا واجبه كمؤرخ للخيام وتلميذ يستشعر بعظيم الاحترام لأستاذه، وأقل ما يقتضيه الوفاء أن يتحرى الدقة فيما يكتبه عنه لأنه للأجيال وللتاريخ.

وعلى أي الأحوال فإن الخيام نفسه قد زدنا ببعض المعلومات من عمره حيث يقول في إحدى رباعياته ما يثبت بلوغه الشيخوخة:

قد انطوى سِفْر الشباب واغتدى
ربيع أفراسي شتاءً مجدبا
لهفى لطير كان يُدمى بالصيباً
متى أتى وأى وقتٍ ذهباً

وعندما يبلغ سن الستين يستشعر أنه قد دنا من الموت أكثر فيقول:

لا تؤمّل ما فوق ستين حولاً

ثم يطعن في السن ويبلغ السبعين فيقول:

بلغتُ سبعين حولاً كاملاً فمتى
ألقي الهناء إذا لم ألقه الآن؟

ثم يبلغ سن الثانية والسبعين فيقول:

مركز دل من ز علم محروم نشد
كم ماند زا سرارک مفهوم نشد
هفتاد وده سال عمر کردم شب وروز
معلوم شد که هیچ معلوم نشد

أى ما حرم قلبى قط من العلم، ولم تبق من الأسرار التى فهمتها إلا قليلاً، وعشت اثنتين وسبعين سنة، ليلها ونهارها، فعلمت أخيراً بأنى لم أعلم شيئاً أبداً.

والعدد «٧٢» هذا نجده فى ترجمات أخرى للخيام على أنه ٧٢ فرقة، وهذا اللبس ربما - أقول ربما - مصدره فيتزجيرالد فإنه يقول فى الرباعية رقم ٤٣ من الطبعة الأولى لترجمته:

The Grape that can with Logic absolute
The Two - and - seventy jarring Sects confute:
The subtle Alchemist that in a Trice
Life's leaden Metal into Gold transmute.

ويترجم البستانى معناها فيقول مشايماً له حول المقصود من العدد ٧٢:

صاح خَلّ الثنتين والسبعينا
ملاً تنهد الهدى واليقينا
واشف داءً فى جانبك دفيناً

وفى تفسير هذا العدد يقول البستاني فى شروحه على المتن: انقسام الشعوب إلى ٧٢ ملة قولُ جارٍ مثلاً فى بلاد الفرس. وقد ذكر أحد شراح الرباعيات كلاماً مروياً عن الرسول ماله: إن أمتى ستنقسم إلى ثلاث وسبعين ملة، جميعها تدخل النار إلا واحدة. والخيام هنا يشير إلى الشيع والطوائف على اختلاف نزعاتها. - فهل يأتى انساق البستاني وراء خطأ ارتكبه فيتزوجيرالد حول العدد ٧٢، أم أن هناك رباعية ترجمتها كما أوردها الشاعر الإنجليزي وتابعه فيها الشاعر العربى؟

ونعود إلى رواية العروضى عن وفاة الخيام ونكتفى منها بأن الخيام كانت وفاته بنيسابور ودفن بها بمقبرة الحيرة. وقبر الخيام ما يزال هناك وقد ابتنى فوقه المحبون لرباعياته ضريحاً يزوره الناس ويتبركون به. وعندما زاره العروضى تذكر نبؤة الخيام التى سمعه يقولها بحضوره وفى مجلس الأمير أبى سعد بقصره ببلخ: أن قبره سيكون فى موضع تنثر الشمال الأزهار عليه كل ربيع». وقد فاجأ قوله ذاك العروضى وظنه يقول المستحيل، إذ من أين له أن يعرف؟ فلما زار قبره وأرشد إليه أحد الأدلاء وجده أسفل حائط لبستان «وقد امتدت أغصان أشجار الكمثرى والمشمش من البستان عليه، ونثرت من أوراق النور على ثراه ماغطاه بالزهر»، وعندئذ تذكر النبوة وتحسر على أستاذه وغلبه البكاء. ولأحسب يقيناً أن ما أبكاه هو مشهد القبر ولتحقق النبوة، وإنما هو بالتأكيد هذه الأبيات التى أبدعها أستاذه عن مثل هذا الموقف والتى تذكرها الأجيال له. يقول الخيام:

يا دهر أكثرت البلى والخراب * وسُمت كل الناس العذاب
ويا ثرى كم فيك من جواهر * يبين لو ينبش هذا التراب
وإن تواف العشب عند الغدير * قد كسا الأرض بساطاً نضير
فامش الهوينا فوقفه إنه * هذته أوصال حبيب طويرا!

وأحسب أن العروضى قد انصاع للأمر ومشى الهوينا ودموعه تخصل لحيته وتمتلىء بها مآقيه!

ويروى الشهرزورى مشهد وفاته فيأتى وصفه كأبداع مايكون الوصف الدرامى من جلالٍ

وعظمة، وشموخ ووقار، ورقة وحنو يذيب القلب. - يقول الشهرزوري عن ختن الخيام المسمى محمد البغدادي الذي حضر الوفاة ونقل هذا الوصف إليه بعد أن رآه رأى العين - قال: كان الإمام عمر يقرأ متاملاً فصل الإلهيات من كتاب الشفاء لابن سينا، وكان يتخلل بخلال من ذهب (كذا!)، فلما وصل إلى باب الواحد والكثير وضع الخلال بين الورقتين وطلب أن ندعو أصحابه حتى يوصي، فلما وصي قام وصلي، ولم يذق طعاماً ولا شراباً حتى كانت صلاة العشاء فصلها وسمعه يقول: «اللهم إنك تعلم أنني عرفتك على مبلغ طمى، فاغفر لي فإن معرفتي إياك وسيلتي إليك...» ثم أسلم الروح!

وكانها ميتة بطل تراچیدی - أو كما يقولون كانت نهايته نهاية تستحق!

ولنراجع المشهد: عمر يقرأ ويتأمل. وأي كتاب كان يقرأ؟ هو كتاب الشفاء للفيلسوف الأعظم ابن سينا، والشفاء هورائعتة الفريدة ودرته الخريدة.

وواضح أنه تأثر بما كان يقرأ أشد التأثر حتى أنه قام يصلي ويوصي، وامتنع بعد ذلك عن الكلام والحركة فلا يكلم إنسياً، وكأنه كان يستحضر نفسه أمام ربه، ولذلك سمعوه يناجيه مناجاة العارف بالله: يارب! لقد عرفتك على قدر ما أستطيع، وشفيعي إليك هو هذه المعرفة بك، فاغفر يارب!

وقالوا أكثر من ذلك إن آخر ما أنشده قبل وفاته هذا الرباعي:

يارب خردم درخورد اثبات تونيست
وانديشه من بجز مناجات تونيست
من ذات ترا بواجبي كسي دانم
داننده ذات تويجز ذات تونيست

أي: ياربي! إن عقلي قاصر عن معرفة أسبابك، وما تفكرى إلا مناجاة لك. وأنا أعرف ذاتك حق المعرفة، ولا يعلم ذاتك غير ذاتك.

وقيل كانت آخر أناشيده قبل الوفاة هذه الرباعية:

سير امدى اى خدای از هستی خویش
از تنک دلی واز تهی هستی خویش
از نیست چو هست میکنی بیرون آر
زین نیستیم بحرمت هستی خویش

ومعناها: مللت يا إلهى وجودى من ضيق صدرى وقلّة ذات يدي. يامن يجعل من العدم
وجوداً، أخرجنى من عدى بحرمة وجودك!

(٢)

عمر الخيام: الموطن

ذهب بعض المؤرخين إلى أن الخيام من مواليد قرية شمشاد من قرى بلخ، أو من بسندك
استراباد، إلا أن ما يذهبون إليه ليس له ما يرجحه يقيناً، ويكاد يكون الإجماع على أن الخيام
نيسابورى، ولد بنيسابور، وفيها عاش، وبها دفن.

وفى كتاب نزهة الأرواح للشهزورى أن عمر الخيام نيسابورى أصلاً وموطناً، ويذكر
القضى فى تاريخ الحكماء أنه إمام خراسان، باعتبار أن نيسابور تتبع إقليم خراسان،
ولذلك فإن البيهقى فى كتاب تنمى صوان الحكمة يعدد حكماء خراسان الإقليم ويقول إن
الخيام بالنسبة لهم أزخرهم بحراً، وأرفعهم قدراً، وينب القزوينى فى آثار البلاد إلى أن
نيسابور ينسب إليها من الحكماء عمر الخيام.

ونيسابور كما ترد فى معجم البلدان لياقوت الحموى: بفتح أولها، والعامّة يسمونها
نشاور، مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة. وهى معدن الفضلاء، ومنبع العلماء. لم أر فيما
طوّفت من البلاد مدينة كانت مثلها. وقال بطليموس فى كتابه الملحمة: مدينة نيسابور طالعا
الميزان، ولها شركة فى كلّ الجوزاء مع الشعرى، ومن هناك طالت أعمار أهلها.

وأختلف فى تسميتها بهذا الاسم، فقال بعضهم إنما سميت بذلك لأن «سابور» مرّ بها
وفىها قصب كثير، فقال يصلح أن يكون هنا مدينة، فقل لها نيسابور.

وقيل فى تسميتها وتسمية مدن سابور خواسست وجنديسابور أن سابور لما فقدوه حين
خرج من مملكته كقول المنجمين، خرج أصحابه يطلبونه فبلغوا نيسابور فلم يجدوه، فقالوا
نيسست سابور، أى ليس سابور، فرجعوا حتى وقعوا إلى سابور خواسست، فقل لها ماتريدين،
قالوا سابور خواسست، ومعناه نطلب سابور، ثم وقعوا إلى جنديسابور، فقالوا وندسابور، أى
وُجد سابور.

وإذن فنيسابور ليست هى جنديسابور، ولذلك فقد وقع المرحوم توفيق مفرج مترجم

الرباعيات في الخطأ عندما نذكر أن الخيام من جنديسابور، فاختلط عليه أمر التسميتين
وظنهما واحداً، أو أنه ظن أن الصواب نطق نيسابور جنديسابور، والله أعلم.

ويقول الحموي إن أكثر شرب أهل نيسابور كان من قنّى تجرى تحت الأرض، ينزل إليها
في سراديب مهياةً لذلك، فيوجد الماء تحت الأرض وليس بصادق الحلاوة. ويقول إن عهده بها
كثيرة الفواكه. وكان المسلمون قد فتحوها في أيام عثمان بن عفان والأمير عبد الله بن عامر
بن كُرَيْر سنة ٣٦هـ صلحاً، وبنى بها جامعاً. وقيل إنها فُتحت في أيام عمر على يد الأحنف
بن قيس، وإنما انتفضت في أيام عثمان، فأرسل إليها عبد الله بن عامر ففتحها ثانية،
وأصابها الفُز سنة ٥٤٨هـ بمصيبة عظيمة، حيث أسروا الملك سنجر، وملكوا أكثر خراسان،
وقدموا نيسابور، وقتلوا كل من وجدوا، واستصفوا أموالهم حتى لم يبق فيها من يُعرف،
وخربوها وأحرقوها، ثم اختلفوا فهلکوا، واستولى عليها المؤيد أحد ممالك سنجر. وتقلبت بها
الأحوال حتى عادت - كما يقول الحموي - أعمر بلاد الله، وأحسنها وأكثرها خيراً وأهلاً
وأموالاً، لأنها دهليز المشرق، ولا بد للقول من ورودها، وبقيت على ذلك إلى سنة ٦١٨هـ.

تلك إذن نيسابور، حاضرة من الحواضر الإسلامية الكبرى، وفيها تجتمع كل الثقافات
والمثل والأديان والنحل، لأنها على حد تعبير الحموي دهليز المشرق الذي لا بد للقوافل من
ورودها. ولا ينبغي أن ننسى ذلك ونحن نتحدث عن ثقافة عمر الخيام. ومع كل ماسبق فإن لكل
عملة وجهين، وكان ذلك هو الوجه المشرق لنيسابور، أما وجهها الرديء وهو الذي أنف منه
الخيام وشكا منه مرّ الشكوى فهو ما قد ظهر له من رياء أهلها وصعوبة تحصيل العيش فيها.
يقول:

يا باقياً رهن الرياء ورائحاً

لتصير هيشك في عناء متعب

وقال فيها القاضي أبو الحسن الاسترأبازي:

لاقدس الله نيسابور من بلد * سوق النفاق بمغناها على ساق
يموت فيها الفتى جوعاً وورهم * والفضل ماشئت من خير وأرزاق
والخير في معدن الفرثي وإن برقت * أنواره في المعان غير برآق

وقال المرادى يذم أهلها:

لاتنزلن بنيسابور مفترياً * إلا وحبلك موصولاً بسلطان
أر لا فلا أدب يجدى ولا حسب * يُفنى ولا حرمة تُرعى لإنسان
